6 غطـة من جهبـذ

يتمنى المؤمن أن يغفر الله له ويدخلـه الجنـة، وإنـه لفـوز عظـيم نفـوزه بمجرد أن نتجاوز باب الجنة بخطوات، ولكن الطمع بما عند الله طمع حلو لذيذ، وإذا بنا نعيش بين مدة وأخرى لحظـات مـن اللحظـات اللذيـذة، لا نقنع فيها بأن ندلف من باب الجنة فحسب، ولا أن نبقى في منازلها الواطئة، بل نطمع أن نكون في عليين، وفي الفردوس، من منازلها الرفيعة.

وهنا يكون الكلام المنطقي:

إن من يريد المنزلة العليا القصوى من الجنة، فعليـه أن يكـون في المنزلـة القصوى في هذه الحياة الدنيا.

واحدة بواحدة.

ولكل سلعة ثمن.

وما هذه المنزلة القصوى في الدنيا إلا منزلة الدعوة إلى الله، كما يقول الشيخ عبد القادر الكيلاني / في كتابه الآخر الذي سماه (**فتوح الغيب**).

كان هو داعية مصلحا، ولذلك تجد كل كتبه تركـز عـلى معنـى الـدعوة ووجوبها.

إن الفائز عند الكيلاني من اختاره الله.

(وجعله جهبذا وداعيا للعباد ونذيرا لهم وحجة فيهم، هاديا مهديا).

ثم قال: **(فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة تفوق منزلتـه إلا النبوة)** [1].

---

(١) فتوح الغيب للشيخ عبد القادر/ ٤٩.

المؤمن الأخرس متأخر

وكان الشيخ قد عد دونه في المنزلة آخر له (**قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله لا عن خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصره بعيوب نفسه، ونور قلبه**).

فلأن هذا المؤمن لم يملك اللسان، نزلت مرتبته، وتأخرت، وفقد ما في ألقاب الأول من الهيبة والفخامة، فالأول: (**جهبذ**) و(**داعية**) و(**حجة**)، وله ما في هذه الكلمات من إشعاع البهاء، والثاني: (**مستور**) فحسب، وبين جرس هذه الكلمة ولفظها وتلك الكلمات وألفاظها من البعد مثل ما بين الأرض والسماء.

إن بونا شاسعًا، وطفرة واسعة بين المنزلتين، منزلة الدعوة ومنزلة الإيمان المستور المنعزل، وسبب البون هو اللسان الناطق بالحق لا غير.

من ملك هذا اللسان فقد بذ وسبق قافلة السائرين إلى الله.. كلهم يسير إلى الله، ولكن أين من في المقدمة، ممن في المؤخرة؟

وكلهم يدخل إن شاء الله الجنة، ولكن أين من يدخلها في الزمر الأول، ممن يدخلها بعد أعوام من الانتظار في ساحة العرض؟ ولذلك جعل الكيلاني / فقه الداعية لواجبه في تغيير الباطل وإظهار الحق منحة ربانية لمن يعلم الله صلاح قلوبهم، وصاغ هذا المعنى بأحرف يسيرة، لكنها ثمينة، فقال:

(**إذا صلح قلب العبد للحق لا ، وتمكن من قربه، أعطى المملكة والسلطنة في أقطار الأرض، وسلم إليه نشر الدعوة إلى الخلق، والصبر على أذاهم يسلم إليه تغيير الباطل، وإظهار الحق**) [1].

---

(١) الفتح الرباني للشيخ عبد القادر/ ١٤٤.

وكذلك البلاغة تكون حين تقتبس من مشكاة النبوة، نسبا وعلمًا، فإنه كان / في الذروة من الشرف، علويا صحيح النسب، كما كان في الذروة من علم الحديث وفقه أقوال الإمام أحمد بن حنبل /.

إنه يقول: إن نشر الدعوة توفيق من الله، يوفق له من يعلم صلاح قلبه، فهو تشريف، وليس بتكليف.

ودقق النظر في قوله: (**يسلم إليه تغيير الباطل وإظهار الحق**).

الباطل يجب أن (**يغير**)، يغيره (**الداعية**)، أي يحاربه، ويزيله، ويهيل عليه التراب يقبره.

إما أن ترجو من الباطل أن يترك مكانه ويعطيه إياك...

وإما أن تتكلم معه باللغة الدبلوماسية، فذلك لن يكون ولن يفيد، وإنما هو التغيير فقط ينص عليه قانون الدعوة.

نصل الماضي بالآتي

وإذن فإن الإسلام اليوم أحوج ما يكون إلى جماعة من الدعاة الذين يملكون هذه النظرة التغييرية المفاصلة، دعاة يدركون جيدًا واجبهم في هداية الناس، ويبصرون موقعهم في موكب الدعوة السائر، وأنهم حلقة تصل الماضي بالآتي، وينشدون:

نحن في ذي الحياة ركب سفار ... يصل اللاحقين بالماضينا

قد هدانا السبيل من سبقونا ... وعلينا هداية الآتينا [1].

نعم، تعبوا -رحمهم الله، حتى أوصلوا عقيدة التوحيد لنا، وربونا وهذبونا، وانتشلونا من مخاطر متلفة، وعلينا أن نكون أوفياء لهم، ننفذ عهدنا حين أخذوا علينا أن نعمل مثل الذي عملوا.

---

(١) لعزام في ديوان المثاني/ ١٤٩.

غرسوا فأكلنا، ونغرس فيأكلون.

والغرس يقتضي مخالطة الناس، ومشافهتهم، والصدع بالحق.

أما أن يختار الخلوة، ويترك محاربة الأفكار الأرضية، والمفاسد الخلقية، فهو كما وصفه مصطفى صادق الرافعي (**يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها إذا كانت فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وايم الله، إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعا لهو الخالي من الفضائل جميعًا**)[1].

وأي فرق بين المعتزل في رأس جبل، وبين من يعيش مع الناس أخرس صامتًا؟

إن مشكلة المسلمين اليوم لا يسببها نقص عددهم، ومشكلة الدعوة الإسلامية اليوم لا تتمثل في قلة عدد من بقي ثابتا صامدًا على إسلامه حين كثر في الأمة ترك الصلاة والابتداع وحمل أفكار الكفر، فإن كل قطر من أقطار الإسلام لا يزال فيه شباب خير كثير عددهم، ولكن المشكلة في أنهم يصدعون بإسلامهم، ولا يدعن، أو يدعون من غير تنسيق بينهم، وإلى هذا المعنى أرشد الداعية البطل المقدام الفقيه عبد القادر عودة / فقال:

(**في البلاد الإسلامية اليوم جيل مثقف ثقافة إسلامية عالية حريص على أن يعيد للإسلام ما فقده، لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا عيب فيهم إلا أنهم متأثرون بأسلافهم إلى حد كبير في بعض الاتجاهات، حيث يصرفون أكثر جهدهم في العبادات والمواعظ، ولو أنهم صرفوا أكثر جهدهم في**

---

(١) وحي القلم ٢/ ٩٧.

تذكير المسلمين بشريعتهم المعطلة وقوانينهم المخالفة للشريعة وحكم الإسلام فيها لكان خيرًا لهم وللإسلام) [١].

الإمام أحمد يباشر التجميع

وشأن الداعية أن يترصد أخيار الرجال في المجتمع، فيحتك بهم، ويتعرف عليهم، ويزورهم، ويعلمهم طريق ضم الجهود الإسلامية وتنسيقها، فيجدد بذلك سيرة الإمام الداعية المبجل أحمد بن حنبل.

قالوا: كان الإمام أحمد **(إذا بلغه عن شخص صلاح، أو زهد، أو قيام بحق، أو اتباع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله)** [٢].

لم يكن بالمنعزل المتواري الهارب من الناس.

ولا يكون داعية اليوم إلا من يفتش عن الناس، ويبحث عنهم ويسأل عن أخبارهم ويرحل للقائهم، ويزورهم في مجالسهم ومنتدياتهم، ومن انتظر مجيء الناس إليه في مسجده أو بيته فإن الأيام تبقيه وحيدًا، ويتعلم فن التثاؤب.

وانظر من تطبيق الإمام أحمد لحرصه هذا مثالا يذكرونه في معرض التعريف بشيخ البخاري والترمذي موسى بن حزام.

قالوا: إنه كان ثقة صالحا، لكنه **(كان في أول أمره ينتحل الإرجاء، ثم أعانه الله –تعالى– بأحمد بن حنبل، فانتحل السنة، وذب عنها، وقمع من خالفها، مع لزوم الدين، حتى مات)** [٣].

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه/ ٦٥.

(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي/ ٢١٨.

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر ١٠/ ٣٤١.

وإنها لكلمات تحوي من معاني الدعوة شيئا كثيرًا.

إن هذا التغيير لم يتم بالأماني المجردة.

ألا ترى أن الإمام أحمد لزمه أن يجلس معه المجالس الطوال مناقشا له برفق وسكينة وحكمة وموعظة حسنة حتى استطاع صرفه عن بدعة الإرجاء التي توهمه أن العمل ليس شرطا في الإيمان، وإنما هو تصديق القلب فقط، ثم مجالس أخرى علمه فيها السنن، ثم مجالس أخرى بعث فيه همة عالية استمر معها حتى موته بالدفاع عن السنة وقمع مخالفيها من أهل البدع والشهوات.

إنه كذلك طريق الدعوة وسبيل خدمة الإسلام، وكذلك كان سلفنا من دعاة الإسلام.

لابد من اتصال بالناس.

لابد لك من مجالس معهم تعلمهم فيها.

لابد لك من ترك زوجك وأولادك ومجالس الدنيا وهموم التجارة بضع ساعات في كل يوم، تتوجه فيها إلى الله، داعيا أن يعين بك ضالا من ضحايا الطواغيت الحالية، فتهديه، أو يعين بك يائسا جامدًا، يستهلكه الحزن على واقع المسلمين، وتقيده همومه الدنيوية، فتحركه وتهزه وتغطه غطًّا.

إنها غطة العزم.

غط جبريل ÷ نبينا محمدًا ﷺ ثلاثا في غار حراء في أول لحظات نبوته، فضمه إلى صدره ضمًّا شديدًا، ثم قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق] .

وغط النبي ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس، ضمه إلى صدره، وقال: **(اللهم علمه القرآن)**.

وغطك الدعاة.

وعليك أن تغط غيرك هذه الغطة الواجبة التي تضع حدا فاصلا بين عهد الرخاوة وعهد حملة الأمانة بحزم وعزم ووفاء.

لقد أعان الله –تعالى– بأحمد آلافا مثل موسى بن حزام هذا، وبهم استطاع أن يرد فتنة وكيد الجهمية والمعتزلة وينصر السنة، فكم يا ترى سيعين الله بك اليوم من ترد بهم كيد الشرق والغرب؟

لقد كان السلف ي أفرح ما يكونون عند العمل للدعوة وهداية أحد على أيديهم.

كان عبد القادر الكيلاني يقول:

(سبحان من القى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي).

ثم يقول:

(إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي: شبعت وارتويت، واكتشيت، وفرحت، كيف خرج مثله من تحت يدي؟) [1].

هذا شبعهم وريهم، لا في تأليف الكتب فحسب، والتي تكرر المعاني الواحدة.

العالم من كان داعية، أما مؤلف الكتب فحسب فنقول له:

لست والله عالما أو حاكما إنما أنت تاجر في العلوم [2].

الإسلام اليوم لا يحتاج مزيد بحوث في جزئيات الفقه بقدر ما يحتاج إلى دعاة يتكاتفون.

---

(١) الفتح الرباني/ ٢٧.

(٢) لعزام في ديوان المثاني/ ٩٨.

فقه الوزير الداعية

واسمع إلى طريف ما فهمه الفقيه المحدث العابد الوزير العباسي الصالح ابن هبيرة الدوري / من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس:٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠] إذ يقول:

(تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا الرجلان جاءا من بعد في الأمر بالمعروف، ولم يتقاعدا لبعد الطريق) (١).

وياله من استخراج بديع مع بساطته يجعل الداعية يتأمل ويقول: هل يتأتى للداعية اليوم أن يستكثر ما توجبه الدعوة عليه من حركة يومية بعيدة بعد أن يعرف هذا الذي كان عليه سلفه من دعاة القرون الأولى وصفتهم هذه التي خلدها القرآن في الجوب والتجول والذهاب إلى الأقاصي بغية بث الدعوة والأمر بالمعروف؟

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس].

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا، ولم يقبع في داره بعقيدته، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ٢٦٩.

يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين.

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضمير تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها [1].

❊ ❊ ❊

(١) في ظلال القرآن ٢٣/ ١٦.

obeikandl.com